

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

الموسم الجامعي: 2022/2021

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

المستوى: أولى جذع مشترك علوم إنسانية

قسم العلوم الإنسانية

الأستاذ: عبد الله زين (أ / محاضر.ب)

المقياس: مدخل إلى الفلسفة

المحاضرة 03: الفلسفة مباحثها وقضاياها / المعرفة (الإبيستيمولوجيا)

أولاً: ماهية الإبيستيمولوجيا

***تمهيد:**

إذا كان الفلاسفة الطبيعيون في الفلسفة اليونانية قد بحثوا مسألة أصل الوجود، فإن النزعة السفسطائية و سقراط قد غيروا منحى اهتمام الفلسفة؛ بحيث جعلوا الإنسان محور اهتمامها، حتى قيل: " أن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض " . وأبرز موضوع بحثه هؤلاء مسألة " المعرفة "، وقد تشكّل مبحث المعرفة في تاريخ الفلسفة كمحاولة لاستجماع التساؤلات والإجابات التي أثيرت حول قضايا المعرفة والشك، والاعتقاد واليقين، والبرهان والحدس، والمسائل المتشعبة عنها، مثل: مسألة الحقيقة وقيمة المعرفة . ومن هنا فإن التساؤلات المركزية التي يسعى هذا الفرع من فروع الفلسفة إلى الإجابة عنها : ما هي المعرفة ؟ وما هي أفضل الطرق الموثوقة بها في اكتسابها ؟ وهل المعرفة ممكنة أم مستحيلة ؟

قبل الحديث عن إمكانية المعرفة ومصدريتها وطبيعتها، نحاول تحديد مفهوم الإبيستيمولوجيا، فهي لفظ مركّب من قسمين: إبستيمي (Epistémé) وهو العلم، ولوغوس (Logos) وهو النظرية أو الدراسة، فمعنى الإبيستيمولوجيا إذن نظرية العلوم أو الدراسة النقدية للعلوم . لكن اللفظ في هذا السياق، يعني مبحث المعرفة، والذي يمكن التعبير عنه بمصطلح " نظرية المعرفة "؛ والتي تعنى بموضوع المعرفة عند الإنسان، وتتناولها من جوانب: الإمكانية، والمصدر، والطبيعة، والقيمة .

أما بخصوص لفظ " المعرفة "، فنقول: عرف الشيء أي أدركه بالحواس أو بغيرها؛ فالمعرفة إذن إدراك الأشياء وتصورها . كما يطلق لفظ " المعرفة " على معنيين أساسيين هما:

-الفعل العقلي الذي يدرك الظواهر ذات الصفة الموضوعية .

-النتيجة المترتبة عن ذلك الفعل العقلي؛ أي على حصول معنى الشيء في الذهن .

لذلك يرى بعض المفكرين أن المعرفة تعني ثمرة التقابل والاتصال بين ذات مدركة وموضوع مدرك . فالمعرفة هنا تستجمع في عناصرها المفهومية فعل الذات الفكرة، ونتاج هذا الفعل لحظة ما يتجه نحو موضوع من الموضوعات .

ثانياً: إمكانية المعرفة (المذاهب الشكية - المذاهب الدغمائية)

تعتبر إشكالية إمكانية المعرفة من أبرز الإشكاليات في تاريخ الفكر الفلسفي، في مختلف أطواره ومراحلها، وتعتبر هذه الإشكالية عن الوصول إلى الحقيقة، التي تعتبر فضيلة الأنساق المعرفية . لقد كانت -الإشكالية المذكورة سلفاً- مثار جدل بين الفلاسفة؛ بحيث توزعت المذاهب الفلسفية حول هذه المسألة إلى اتجاهين كبيرين هما: المذاهب المنكرة لإمكانية المعرفة " المذاهب الشكية " والمذاهب القائلة بإمكانية المعرفة " المذاهب الدغمائية " .

أ-المذاهب الشكية:

هي المذاهب الفلسفية التي أنكرت وجود معارف أكيدة أو حقائق مطلقة، وتأتي النزعة الشكية في مقابل النزعة الاعتقادية أو الوثوقية . ترفض النزعة الشكية القول بوجود أساس أو معيار مطلق للحقيقة؛ إذ ترى أننا لا نعرف الواقع إلا بحواسنا المحدودة التي تحتاج هي الأخرى إلى أدوات للبرهنة على صدقها وبقينها . وأعظم الشكاك القدماء هم : " بيرون " و " سكستوس أمبيريكوس "، ولقد عرض هذا الأخير في كتابيه: " الجمل الفورونية " و " ضد المعلمين " جملة من الحجج منها:

-حجج تتعلق بالذات التي تحكم (كتوقف عملية الإدراك على تركيب وبنية الذات التي تحكم، واختلاف المدارك بحسب قوة وضعف الحواس، واختلاف الانطباعات وفقاً للظروف كحالة النوم واليقظة مثلاً) .

-حجج تتعلق بالموضوع الذي نحكم عليه؛ فالأشياء المألوفة مثلاً تبدو لنا عادية، أما النادرة فتثير فينا الدهشة، وهذا يدل على أننا لا نعرف هذه ولا تلك .

-حجج تتعلق بالذات والموضوع معاً، فنفس السفينة مثلاً تبدو من بعيد: صغيرة وساكنة، ومن قريب: تبدو كبيرة ومتحركة . ذلك فيما يتعلق بالمسافات . أما فيما يتعلق بالأماكن، فإن ضوء المصباح يبدو مظلماً في الشمس ولا معاً في الظلمة، وهكذا .

وبالجملة يقول " سكستوس أمبيريكوس ": « أما وقد بينّا أن كل شيء نسبي، فمن الواضح أننا لا نقدر أن نحدد طبيعة أي شيء، بل فقط ما يبدو عليه بالنسبة إلى شيء آخر. وينتج عن هذا أنه يجب علينا أن نعلق حكماً على طبيعة الأشياء » .

كما تجسّد مذهب الشك عند السوفسطائيين، الذين كان يتزعمهم "بروتاغوراس" و"جورجياس" وكان السوفسطائيون يرون بوجه الإجمال أن الإنسان هو مقياس الأشياء جميعا. مقياس ما يوجد منها وما لا يوجد، وهنا تستحيل المعرفة الموضوعية، كما كان بعضهم يرى أنه لا يوجد شيء، وإذا وجد يستحيل معرفته، وحتى إذا عرف يستحيل نقله إلى الآخرين، فالمعرفة ممتنعة .

ب- المذاهب الدغمائية :

بعد أن كثرت وانتشرت نزعات الشك في التفسيرات الفلسفية الساذجة التي ذهب إليها أوائل اليونانيين، رأى أصحاب مذهب الاعتقاد ضرورة قيام هذا المذهب كمذهب له أصوله وقواعده كفلسفة و كمعرفة ليعيد إلى الحقيقة يقينها، بعد أن سلبها الشك ذلك اليقين .

يظهر أن المذاهب الدغمائية، هي المذاهب الفلسفية التي تقول بإمكانية اكتساب المعرفة والتوصل إلى الحقيقة، ويعرف أصحاب هذا المذهب بالاعتقاديين أو اليقينيّين، وهم الأكثر عددا في تاريخ الفلسفة (أفلاطون، ديكارت، كانط، هيجل، سبينوزا... الخ) .

ثالثا: مصدرية المعرفة (المذهب العقلي، المذهب التجريبي، المذهب النقدي، المذهب الحدسي)

إذا كان الدغمائيون قد أجمعوا على أن المعرفة ممكنة، وبلوغ الحقيقة قائم، إلا أنهم اختلفوا حول حدود معارفنا؛ إذ ينقسمون أمام مسألة حدود المعرفة ومصادرها إلى: يقينيون عقليون (رينييه ديكارت)- يقينيون حسيون (جون لوك)- يقينيون حسيون عقليون (إيمانويل كانط)- يقينيون حدسيون (هنري برغسون) .

أ-المذهب التجريبي:

يرى الحسيون (التجريبيون) أن معارفنا ترجع إلى الحواس، فهي المنبع الأصلي لها، يقول " أرسطو": « من فقد حاسة فقد معرفة » . يرى هؤلاء أن العقل صفحة بيضاء تتراكم عليه الانطباعات الحسية وفق قوانين الترابط حتى تركب منه أفكارا، ونجد ذلك عند " جون لوك " في انجلترا، و " كوندياك " في فرنسا .

يرفض " لوك " القول بأن الأفكار الفطرية مصدر للمعرفة، إذ يقول: « لو صح وجود معان فطرية وقضايا موروثية، لتساوى في العلم بها الناس في كل زمان ومكان، على أن مبدأ عدم التناقض أو الذاتية أو غيرهما، مما يظن أنه من المبادئ الفطرية، لا يعرفه إلا قلة من المثقفين، ويجعله الأطفال والمعتوهون والهمج . وأما المبادئ العملية الخلقية والقانونية، فيختلف الناس في أمرها باختلاف الزمان والمكان، والهمج يرتكبون الكبائر دون أن يؤنبهم على ارتكابها ضمير» .

ب-المذهب العقلي:

يتأسس المذهب العقلي في منحاه الكلي والعام، على أن العقل هو الوصف الخاص بالإنسان، وهو ما أكده " ابن خلدون " في " المقدمة "؛ حيث يرى أن الإنسان يتميز عن الحيوان بالفكر الذي يعتمد عليه في تحصيل معاشه، وفي قبول ما جاءت به الأنبياء من الله تعالى .

لقد أخذ العقل تحولات متعددة، واقترب في العصر الحديث من كونه الفكر غير المتناقض، المنطقي، المقدم في خطاب منظم ومتماسك، والمقنع في نظر أغلب الناس . وعلاقة هذا بمصدر المعرفة حسب الاتجاهات العقلية، أن العقل لا يتلقى المعارف اليقينية من عالم التجربة، إنما يستنبط من ذاته، فهو : " قوة إلهية، أو أكثر ما فينا ألوهية، له المحل الأول بين قوانا، يتعقل الأمور الجميلة الإلهية، وتعقله هو السعادة القصوى " .

يمثل المذهب العقلي عديد الفلاسفة، منهم الفرنسي " رينيه ديكارت " الذي رفض موقف المذهب الحسي من مصدر المعرفة، واعتقد في نوع آخر من المعرفة هي المعرفة العقلية، وهي تلك المحدودة بحدود العقل وإطار الفكر الواضح المتميز . ذهب ديكارت إلى أن هناك، أفكارا فطرية فينا، وأقام بناءه المعرفي الإبيستيمولوجي كله على أساس الفكر، وقد هذا الفيلسوف بأن العقل وحده سبيلنا إلى المعرفة، من خلال ما يحمله من أفكار فطرية بديهية وواضحة ومتميزة، والخلاصة هي أن ما نعرفه - حسب ديكارت - محدود بحدود العقل، ووراء العقل والفكر نحن لا نعرف شيئا .

ج-المذهب النقدي:

هو المذهب الفلسفي الذي تجاوز التعارض القائم بين الحسيين والعقليين، من خلال الجمع بين الحس والعقل في الوصول إلى المعرفة، وهو ما حققه " إيمانويل كانط " ضمن فلسفته النقدية، فقد ذهب هذا الأخير إلى أن المعرفة الإنسانية ما هي إلا تضافر وتعاون بين أساسين: أساس حسي هو العالم الخارجي، بما يبدو فيه من ظواهر، وأساس عقلي تتمثل فيه ثلاث قوى هي: الحساسة الصورية، والفهم الصوري، والنطق الصوري . وذهب كانط إلى أن المعرفة التي تقوم على الحواس وحدها، هي معرفة مشتتة مبعثرة فرادى، لا ضابط لها ولا رابط، كما أن المعرفة العقلية وحدها هي مجرد صيغ جوفاء فارغة خالية من أي محتوى أو مضمون .

د-المذهب الحدسي:

هو المذهب الفلسفي الذي ظهر حديثا على يد الفيلسوف الفرنسي " هنري برغسون "، والذي ناهض العقل والحواس على حد سواء، واعتمد على قوة أخرى هي قوة الحدس، التي تصل إلى نوع من المعرفة يختلف عن المعرفة الحسية والعقلية معا؛ هي المعرفة الحدسية التي تعتمد على الحدس أو الذوق أو الوجدان، والمعرفة عند " برغسون " ممكنة لكن في حدود الحدس، يقول برغسون: « إذا كانت الحياة سببا شخصيا وفرديا فلا يمكن أن ندرك أو نعرف فيما لها من خصوصية وفردية إلا بقوة أخرى غير العقل وغير الحس معا، فما هي هذه القوة ؟ يقول

برغسون إنها الحدس، والحدس عنده تعاطف ومشاركة وجدانية للغوص في باطن الواقع والاتجاه بما للواقع من خصوصية ينفرد بها مما لا يمكن التعبير عنه بالتصورات والألفاظ العامة » .

رابعاً: طبيعة المعرفة (المثالية – الواقعية)

يتناول هذا العنصر مسألة المعرفة من زاوية طبيعتها، وقد برزت اتجاهات ورؤى فلسفية متنوعة ومتناقضة، كالمثالية باتجاهاتها و الواقعية بتياراتها كذلك، لكنها طرحت السؤال التالي: هل المعرفة ذات طبيعة مثالية أم أنها ذات طبيعة واقعية ؟ وقد انقسم الفلاسفة في الإجابة عن هذا السؤال إلى اتجاهين بارزين: مثاليون وواقعيون .

أ-المثالية: (Idéalisme)

المثالية بالمعنى العام، " هي الاتجاه الفلسفي الذي يرجع كل وجود إلى الفكر، أو هي ذلك الاتجاه الفلسفي الذي يقول بأن وجود الأشياء ليس شيئاً آخر إلا أفكارنا نحن عنها " .

يرى الفلاسفة المثاليون أن المعرفة ذات طبيعة مثالية؛ بمعنى أنها ترجع إلى أصل مثالي مفارق للواقع الحسي التجريبي . والمثالية نفسها تنقسم إلى ثلاثة أنواع هي: مثالية ذاتية - مثالية موضوعية - مثالية مطلقة . فالأولى تقرر أن الحقائق والمعارف توجد في ذاتنا وفي داخل عقولنا، وهي فطرية فينا، ومن بين زعمائها: جورج باركلي . أما الثانية فنقرر أن الحقائق والمعارف توجد في موضوع خارج الذات، لكنها ليست حقائق تجريبية وليست معارف حسية، بل هي حقائق مثالية، ومثال ذلك المثالية الموضوعية عند أفلاطون، الذي جعل المثل في عالم مثالي غير العالم الذي نحياه، وهو عالم الأشباح - حسب أفلاطون- . والثالثة تلك التي قررت أن المعرفة ذات طبيعة مثالية بحتة؛ فالذات والموضوع معا من طبيعة مثالية خاصة، ويمثل هذا التيار المثالي المطلق، الفيلسوف الألماني " هيغل "، والفيلسوف الإنجليزيان "برادلي" و"بوزانكيت"، والفيلسوف الإيطالي " كروتشة " .

ب-الواقعية: (Réalisme)

الواقعية هي المذهب الفلسفي الذي يرجع كل وجود إلى الواقع، والواقعي هو المنسوب إلى الواقع، ويرادفه الوجودي والفعلي، ويقابله الخيالي والوهمي .

يرى الفلاسفة الواقعيون أن المعرفة ذات طبيعة واقعية؛ بمعنى أنها ترجع إلى أصل واقعي . والواقعية تتأسس على القول بأن الأشياء الخارجية لها وجود عيني مستقل عن العقل الذي يقوم بإدراكها، وعن جميع أفكار ذلك العقل وأحواله، والمعرفة عند الواقعيين إدراك عقلي أو حسي للأعيان في الخارج، أو هي انعكاس العالم الخارجي على العقل .

تنقسم الواقعية إلى ثلاثة أنواع هي: الواقعية الساذجة - الواقعية النقدية - الواقعية الجديدة .

أنظر: عبد الرزاق بلعقروز، مدخل إلى الفلسفة العامة، منشورات ضفاف-منشورات الاختلاف، كلمة للنشر والتوزيع، الرباط، 2015، ط 1، ص: 93-110.